المحاضرة الثامنة:

قضية التأويل بين القديم والجديد

1-مفهوم التأويل:

أولا: مفهوم التأويل لغة:

ورد في لسان العرب "أَوَّلَ الكلام وتَأَوَّلَه: دبَّره وقدّره، وأَوَّلَه وتَأَوَّلَه: فسَّره. وقوله عزّوجلّ:﴿ ولمّا يأتِهم تَأْويلُهُ ﴾، أي لم يكن معهم علم تأويله، والمُراد بالتأويل نقل ظاهر اللفظ عن وضعه الأصلي إلى ما يحتاج إلى دليل لولاه ما تُرِك ظاهر اللفظ، وسُئل أبو العباس أحمد بن يحيى عن التأويل فقال: التأويل والمعنى والتفسير واحد."

ثانيا: معنى التأويل في القرآن الكريم:

وردت لفظة "تأويل" في سبع آيات قرآنية، ووردت لفظة "تأويلا" مرتين في القرآن الكريم، ولفظة "تأويله" ثمان مرات.

1-قال تعالى:﴿ ويُعلّمك من تأويل الأحاديث ﴾سورة يوسف:6.

2-قال تعالى:﴿ ولنُعلِّمَه من تأويلِ الأحاديثِ ﴾سورة يوسف: 21.

3-قال تعالى:﴿ وما نحنُ بتأويل الأحلام بعالمينَ ﴾سورة يوسف: 44.

4-قال تعالى:﴿ وقال يا أبَت هذا تأويل رُؤياي من قبلُ﴾سورة يوسف: 100.

5-قال تعالى:﴿ ربِّ قد آتَيتَني من المُلكِ وعلَّمتَني من تَأْويل الأحاديثِ﴾سورة يوسف: 101

6-قال تعالى:﴿ سأُنَبِّئُكَ بتأويلِ ما لم تستطِع عليهِ صبرا ﴾الكهف: 78.

7-قال تعالى:﴿ ذلك تأْويل ما لم تَسطِع عليه صبرا ﴾الكهف: 82.

8-قال تعالى:﴿ ذلك خيرٌ وأحسنُ تأويلاً ﴾النساء: 59.

9-قال تعالى:﴿ وَزِنُوا بالقِسطاسِ المستقيم ذلكَ خيرٌ وأحسنُ تأويلاً ﴾الإسراء: 35.

10-قال تعالى:﴿ فيتَّبعون ما تشابه منهُ ابتغاء الفِتنةِ وابتغاءَ تأويلهِ ﴾آل عمران:الآية 7.

11-قال تعالى:﴿ وما يعلَمُ تأويلَهُ إلا الله ﴾آل عمران:7.

12-قال تعالى:﴿ هل ينظرون إلاّ تأويله ﴾الأعراف:52.

13-قال تعالى:﴿ يوم يأتي تأويلُه يقولُ الذين نَسُوه من قبلُ ﴾الأعراف: 52.

14-قال تعالى:﴿ ولمّا يأتِهم تأويلُهُ ﴾يونس: 39.

15-قال تعالى:﴿ نبِّئنا بتأويله إنّاَ نراكَ من المُحسنينَ ﴾يوسف: 36.

16-قال تعالى:﴿ إلاّ نبّأتُكُما بتأويلِه قبلَ أن يأتيَكُما ﴾يوسف: 37.

17-قال تعالى:﴿ أنا أنبِّئُكُم بتَأويلهِ فأرسِلونِ ﴾يوسف: 45.

وتعدّدت معاني التأويل في هذه الآيات، من ذلك قول ابن كثير مفسرا قوله تعالى: ﴿ وابتغاءَ تأويلِهِ ﴾ أي تحريفه، أما قوله:﴿ وما يعلَمُ تأويلَهُ إلا الله ﴾ فقد ذكر عن عن ابن عباس-رضي الله عنه- أنه قال: التفسير على أربعة أنواع: تفسير لا يقدر أحد فهمه، وتفسير تعرف تاعرب فهمه، وتفسير تعرفه العرب من لغاتها وتفسير يعلمه الراسخون في العلم وتفسير لا يعلمه إلا الله.

ومعنى قوله تعالى:﴿ ذلكَ خيرٌ وأحسنُ تأويلاً ﴾أي أحسن عاقبة.

وأما قوله:﴿ يوم يأتي تأويلُه ﴾فإن معناه يوم يجئ ما يؤول إليه أمرهم من عقاب الله.

ومعنى قوله تعالى:﴿ ولنُعلِّمَه من تأويلِ الأحاديثِ ﴾تعليم يوسف من عبارة الرؤيا. وقوله:﴿ أنا أنبِّئُكُم بتَأويلهِ فأرسِلونِ ﴾أي بتأويل هذا المنام.

من هنا يتبيّن أن التأويل كما ورد في القرآن هو علم إلهي، ولا دخل للبشر فيه، وجاءت لفظة التأويل بمعنى تفسير الرؤى، أو الإخبار عن غيب في الدنيا، أو يوم القيامة...إلخ

ثالثا: التأويل في الاصطلاح:

وردت العديد من التعاريف لدى العلماء لمعنى التأويل منها ما ذهب إليه الغزالي (ت505هـ) بأن التأويل "عبارة عن احتمال يعضده دليل يصير به أغلب على الظن من المعنى الذي يدل عليه الظاهر ويشبه أن يكون كل تأويل صرفا للفظ عن الحقيقة إلى المجاز."

ويعرّفه ابن رشد (ت595هـ) بقوله:" التأويل إخراج دلالة اللفظ من الدلالة الحقيقية إلى الدلالة المجازية من غير أن يخل ذلك بعادة لسان العرب في التجوز من تسمية الشيء بشبيهه أو بسببه أو لاحقه أو مقارنه أو غير ذلك من الأشياء التي عددت في تعريف أصناف الكلام المجازي"

ويعرّفه الشريف الجرجاني في كتابه" التعريفات": " صرف اللفظ عن معناه الظاهر إلى معنى يحتمله إذا كان المحتمل الذي يراه موافقا بالكتاب والسنة مثل قوله تعالى:﴿ يُخرجُ الحيَّ من الميّتِ ﴾يونس: 31 إن أراد به إخراج الطير من البيضة كان تفسيرا. وإن أراد إخراج المؤمن من الكافر أو العالم من الجاهل كان تأويلا".

2-شواهد من التأويل في النقد الأدبي القديم:

عُرِف التأويل عند العلماء المسلمين المشتغلين بفهم القرآن الكريم، كأداة فعالة لتبيين أحكامه، وتفسير معانيه، ولم يتوقّف الأمر عند النص الديني، بل انتقل اعتماد التأويل إلى حقل الأدب والنقد، خصوصا ما تعلّق بالنصوص الشعرية؛ ذلك أنّ التأويل يساعد على كشف خبايا بعض ما استغلق من المعاني، ومن صور التأويل في النقد القديم:

2-1-التأويل عند القاضي الجرجاني:

يبيّن الجرجاني في كتابه "الوساطة بين المتنبي وخصومه" أنّ التأويل يسمح بتعدّد احتمالات المعاني للنص الواحد، ففي تعليقه على قول المتنبّي:

ما بقَومي شَرُفتُ بل شَرُفُوا بي وبنفسي فَخَرتُ لا بِجُدُودي

يقول القاضي الجرجاني" فختم القول بأنه لا شرف له بآبائه، وهذا هجو صريح، وقد رأيت من يعتذر به، فيزعم أنه أراد: ما شرفت فقط بآبائي، أي لي مفاخر غير الأبوة، وفيّ مناقب سوى الحسب، وباب التأويل واسع، والمقاصد مغيّبة، وإنما يُستشهد بالظاهر، ويتبع موقع اللفظ."

فالتأويل واسع عند الجرجاني، والمعاني تكون ظاهرة أحيانا، وبعيدة مخفية وراء الألفاظ في أحيان أخرى، ويرى بأنّ هناك من " أراد أن يلتمس الأعذار للشاعر فيما أخطأ فيه، فأشار ناقدنا إلى أنّ هناك من أوّل شطر البيت الأول تأويلا خاطئا بناءً على النية والمقصد، مدّعيا أنّ المتنبي أراد أن يشير إلى أن له مفاخر أخرى غير مفاخر الأبوة، في حين يرى هو أن المقصود هنا هو ذاك الذي ظهر من خلال اللفظ."

2-2-التأويل عند عبد القاهر الجرجاني:

يصرّح عبد القاهر الجرجاني في أكثر من موضع في كتابيه" أسرار البلاغة" و" دلائل الإعجاز" بضرورة إعمال الفكر، والتدبّر في المعاني لبلوغ ما خفي منها، ويبيّن أن لذلك العناء حلاوة الوصول إلى الغاية، "ومن المركوز في الطبع أنَّ

الشيء إذا نيلَ بعد الطلب له أو الاشتياق إليه، ومعاناة الحنين نحوه، كان نيله أحلى وبالمزية أولى، فكان موقعه من النفس أجل وألطف".

وفي موضع آخر من كتابه " أسرار البلاغة" يتحدث الجرجاني عن فائدة الاستعارة وقيمتها الجمالية، في إشارة إلى تعدد الاحتمالات والتأويل، فهي" تعطيك الكثير من المعاني باليسير من اللفظ، حتى تُخرج من الصدفة الواحدة عدّة من الدُّرر، وتجني من الغصن الواحد أنواعا من الثمر."

ومن هنا تبرز فائدة التأويل كآلية تسمح بالغوص في أعماق النصوص لاستجلاء ما وراء الاستعارة " ومن ثمّ لا يمكن الوقوف في إيجاز الاستعارة عند حدود اللفظ بل يجب التأويل والغوص في باطن الكلام للوصول إلى تلك المعاني الكثيرة."

3-التأويل في النقد الجديد:

أدرك النقاد العرب في العصر الحديث أمثال طه حسين، ومحمد زكي العشماوي، وجابر عصفور، وغيرهم ممّن اهتموا بدراسة التراث النقدي، أن النقاد القدامى اعتمدوا على التأويل بوصفه آلية تسمح بالكشف عن مختلف المعاني التي يمكن أن تختفي وراء التراكيب اللغوية المتضمنة لاحتمالات عديدة.

وقد توقفت بعض الدراسات الحديثة عند فاعلية التأويل في النقد القديم، ومدى امتلاك نقادنا القدامى للآليات التي تسمح باستخدامٍ أنجح له. من ذلك كتاب" إشكاليات القراءة وآليات التأويل" لنصر حامد أبو زيد.

وبالرغم من أن التأويل كان الأداة الإجرائية الأبرز في شروح وتحاليل النقاد للنصوص الأدبية، والشعرية منها على وجه الخصوص إلا أن هذا لا ينفي وفق ما ذهب إليه نصر حامد أبوزيد " وعي القدماء أن تفسيراتهم-أو تأويلاتهم وعللهم-مجرد اجتهادات قد تقارب الحقيقة أحيانا، وقد تبتعد عنها أحيانا أخرى. وفي هذا التصور إدراك للمسافة المعرفية التي تفصل بين الدارس وبين موضوعه...فالحقيقة عند القدماء غاية بعيدة يدرك كل إنسان طرفا منها ولا يدركها في شمولها أو يحيط بها كلها. ولا شك أن مثل هذا التصور عند القدماء-في مجال اللغة-يتجاوب بعمق مع التصور العام للثقافة العربية الإسلامية، خاصة في مجال تأويل النصوص الدينية."